الغزالي

دراسة - مختارات

الجزء الاول

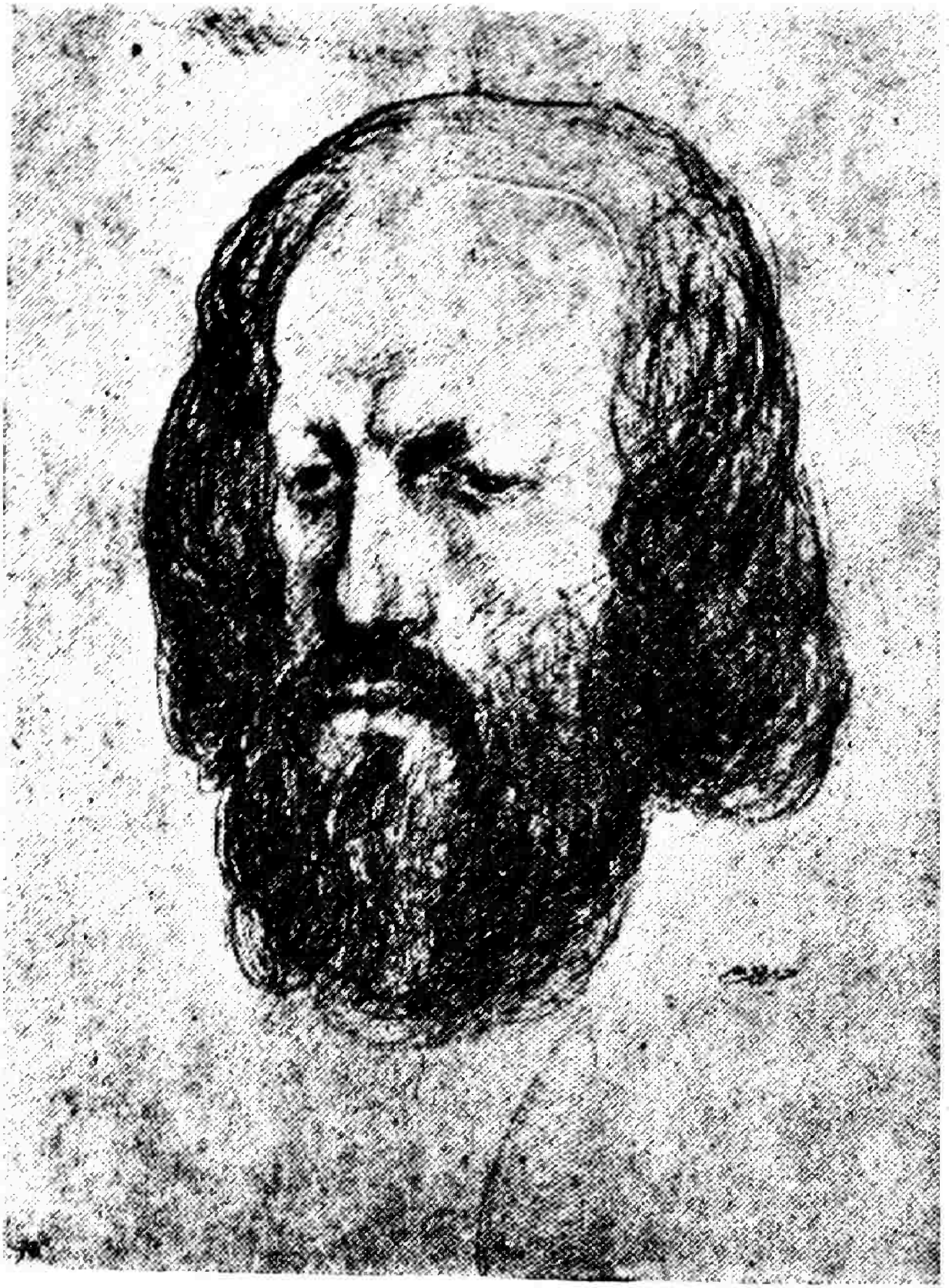

الغزالي

الغزالي

١٠٥٩ — ١١١١ م ٤٥٠ — ٥٠٥ هـ

ترجمته

في حياة كل انسان شطران : احداث خارجية ، تراها في ما يعمل او يهمل ، ونيّات خفيّة ، كامنة وراء العمل والاهمال .

وان بين الاحداث والنيات تفاعلاً حقاً ، وكثيراً ما يلتبس المعلول بالعلة ، والاسباب بالنتائج .

وان في حياة الغزالي احداثاً ونيات ، وان الاحداث لا تخلو من تشويش ، والنيات لا تسلم من التباس .

وانّا ، اذ نتصدى لترجمة الغزالي ، نتصدى لكل هذه العقبات ، ونحاول ان نتأثره في قيامه ورحيله ، وان نتبين ما حداه الى ذلك من اغراض ، ودفعه من غايات .

❖❖❖

في غزالة ، وهي قرية من اعمال طوس ، احدى مدن خراسان ، ولد ابو حامد محمد . . . حجة الاسلام ، واليها انتسب[1] .

---

١) قال ابو سعد عبد الكريم السمعاني — وقد ولد في طوس نفسها ، بعد وفاة الغزالي بسنتين ، وكتب كتاباً شهيراً في الالقاب — ان اسم الغزالي مشتق من غزّالة ، وهي قرية قريبة من طوس . وانّا نعرف رجلا اخر بهذا الاسم ، يدعى الغزالي الاكبر ، ربما كان عمّ الغزالي هذا او جده . واذا زاي الغزالي مخففة ، ولم يلقب بهذا الاسم لان اباه كان يغزل الصوف ، ناهيك عن ان غازل الصوف يدعى غزّالا لا غزّاليا .

وكان ابوه فقيراً يعيش من غزل الصوف ، وكان محباً للعلم يحضر مجالس الفقهاء والوعاظ ، ويتمنى على الله ان يرزقه بنين كهؤلاء . ورزقه الله ما اشتهى ، فكان له محمد هذا ، اشهر فقهاء عصره ، واحمد اخوه ، وكان واعظاً يزدحم عليه الناس .

ويلي الغزالي باليتم ، ففقد اباه صبياً . ويتم بعضهم نعمة ، لانه اعتماد على النفس ، وسير الى غير آفاق .

ويتم الغزالي وضعه في رعاية وصي صوفي . ورعى هـذا الصوفي صداقة الوالد ، فاعتنى بالصبي جسداً وروحاً ، والقى فيه بذوراً طيبة ، سوف تنبت غرساً يانعاً ، وتتفتق براعم وازراراً .

على ان هذا الصوفي كان ضيق الحال ، وما خلّفه الوالد من مال كان نزراً يسيراً ، فلجأ الولد الى مدرسة خيرية ، يلقن فيها العلم ، وينال القوت . ولسنا ندري في اي عمر ترك وصيه الصوفي ، ولا كم اقام في مدرسته تلك .

على اننا نعلم — ونعلم من الغزالي نفسه — انه كان يحس ، منذ صباه ، بفضول عقلي غريب ، يدفعه الى التهجم على كل مشكلة ، والتفحص عن عقيدة كل فرقة . وان هذا الفضول لثقة بالنفس ، وقلق في العقل ، وسر كل مفاجأة .

وانه هذا التطلع العقلي قاد الغزالي الى نيسابور ، الى مدرستها النظامية ، حيث كان يدرس امام الحرمين ، الشافعي الشهير .

واخذ الغزالي عن استاذه الفقه والمنطق ، واخذ عنه جرأة في النظر ، وخروجاً عن مسالك التقليد . وكان الغزالي تلميذاً متفوقاً ، وكان تفوقه يدفعه الى العجب بالنفس ، وكان امام الحرمين يتعض لذلك . على ان الاستاذ كان افطن من ان يتجاهل ذكاء تلميذه ، او يظهر الغيرة منه ، بل كان يتبجح به في الظاهر ، ويقول عنه اذا وصفه : « الغزالي بحر مغدِق . »

ويموت امام الحرمين سنة ٤٧٨هـ = ١٠٨٥م، ويرى الغزالي نفسه ضائعاً وحيداً.

على انه قد اصبح شاباً، وشاباً ناضجاً، له من العلم ما يحابه به الاعلام، ومن الفصاحة والذكاء ما لا يحده طموح.

وكان في العراق وزير سلجوقي كبير، غيور على العلم واهله، غيور على اهل الصلاح، يعاتبه سلطانه ملكشاه على ما ينفقه في سبيل المدارس، فيجيبه من كتاب: «انا اقمت لك جيشاً يسمى جيش الليل، اذا نامت جيوشك ليلاً، قامت جيوش الليل على اقدامهم، صفوفاً بين يدي ربهم، فارسلوا دموعهم، واطلقوا السنتهم، ومدّوا الى الله اكفهم بالدعاء لك ولجيوشك. فانت وجيوشك في خفارتهم تعيشون، وبدعائهم تبيتون، وببركاتهم تمطرون وترزقون.»

واتى الغزالي نظام الملك هذا، واختلط باهل العلم من مجلسه، واظهر في مناظرة الائمة تفوقاً وبراعة. وظلّ في ظل نظام الملك اعواماً ستة، يريه فصاحة وبلاغة، ويريه مودة واخلاصاً، حتى ارسله استاذاً الى مدرسة بغداد النظامية، سنة ٤٨٤هـ = ١٠٩١م.

وكانت المدارس النظامية تلك وسيلة لتأييد السنة ونفوذ السلاجقة، كما كان الازهر في مصر وسيلة لتأييد الشيعة ونفوذ الفاطميين. واذا كان على الغزالي ان يناصر السلطان القائم ضد كل دعوة علوية، وان يدافع عن اراء اهل السنة ضد المبتدعة.

ويبدأ الغزالي التدريس، يحف به ثلاثمائة طالب، واذا به يفكر في مذهب مكين، تسلم فيه السنة، ويلتئم الحق، ويهار الضلال.

ولعل ثقة الغزالي بعقله، ولعل ما لقنه عن امام الحرمين من اعراض عن التقليد، اوصله الى ما وصف لنا من شك في كتاب المنقذ. ولكنه تعليل سوف نعود اليه، ولكنه شك لم يدم سوى شهرين، واذا لتأثر الغزالي في بحثه عن الحق.

وان علم الكلام اول ما يتعرض له الغزالي ، يصنف فيه ، ويكشف عن نقصه ، وينتهي من ذلك اواخر سنة ٤٨٤ هـ = ١٠٩١ م ، او اوائل سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ م .

ثم يبدأ درس الفلسفة « بمجرد المطالعة ، من غير استعانة باستاذ[1] »، وفي اوقات مختلسة اثناء التصنيف والتدريس . ويطلع على منتهى علومها «في اقل من سنتين[1] » ، ثم يواظب على التفكر بها ، بعد فهمها ، « قريبا من سنة[1] » ، يعاودها ويرددها ، حتى يتبين ما فيها من خداع وتلبيس . واذا استغرق درسه الفلسفة قريباً من ثلاث سنوات ، ولعله في السنتين الاوليين وضع كتاب « مقاصد الفلاسفة » ، ولعله في السنة الثالثة وضع كتاب « تهافت الفلاسفة » . وقد جاء في احدى المخطوطات ان كتاب التهافت قد تم في اول سنة ٤٨٨ هـ ، في ١١ محرم = ١٠٩٥ م ، في كانون الثاني .

وينتقل الغزالي الى درس مذهب اهل التعليم ، او الباطنية والباطنية هذه احدى فرق الشيعة ، لها في الدين عقائد خاصة ، ولها في السياسة اهداف معادية للسلطان القائم . من هذه الفرقة كان الاسماعيليون ، ومنها كان القرامطة . في سبيل الدعوة الى غاياتها كتب اخوان الصفاء ما كتبوا ، ولاجل قلب الحكم القائم كانت الثورة القرمطية في البصرة سنة ٤٨٣ هـ = ١٠٩٠ م . ويخبرنا الغزالي انه الف عدة كتب تفنيداً لهذا المذهب . ويخبرنا ايضاً ان امراً جازماً من حضرة الخلافة ورد عليه بتصنيف كتاب يكشف عن حقيقة مذهبهم ، فلم يسعه مدافعته ، « وصار ذلك مستحثاً من خارج ، ضميمة للباعث الاصلي من الباطن[2] . » وان هذا الكتاب هو « المستظهري » ، وان الخليفة المستظهر بالله (٤٨٧–٥١٢ هـ =

---

١) المنقذ من الضلال : ص ٨٥ ٢) المنقذ : ص ١٠٩

١٠٩٤–١١١٨ م) هو الذي امره ، سنة ولي الخلافة ، وان الغزالي قد بحث عقائد هذه الفرقة ، في الاشهر الاولى من سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥م.

ويأتي دور الصوفية.

لقد اظهر الغزالي نقص علم الكلام ، وخداع الفلاسفة ، وضلال الباطنية ، فما عساه يجد في الصوفية ؟

لقد نشأ الغزالي على يد والد تقي ، وتربى على اخلاق وصي صوفي ، ثم لقن تعاليم السنة على امام الحرمين ، واذا كان كل شيء يعده كي يلائم بين السنة والصوفية ، ويتعصب لها.

ينتهي الغزالي الى الصوفية ، فاذا هي علم وعمل.

ويحصل العلم في « قوت القلوب » لابي طالب المكي (+ ٣٨٨ هـ = ٩٩٨ م) ، وكتب الحارث المحاسبي (+ ٢٤٣ هـ = ٨٥٧ م) ، وفي ما بقي من الجنيد (+ ٢٩٧ هـ = ٩٠٩ م) ، والشبلي (+ ٣٣٤ هـ = ٩٤٥ م) ، والبسطامي (+ ٢٦٤ هـ = ٨٧٧ م) ، وغيرهم من المشايخ ، فاذا اخص خواص الصوفية « ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم ، بل بالذوق ، والحال ، وتبدل الصفات[1] .» واذا عليه ان يحيا الحياة الصوفية ، ويسلك الطريقة ، ان يترك التدريس في بغداد ، وما يجده من مال وجاه ، وان يغادر جوه العائلي الدافئ ، وما يغمره من حب الزوج والبنين ، ويذهب زاهدا متأملا سائحا ، كي يخبر الحالة الصوفية ، ويبدي حكما صائبا فيها.

وهنا يحدثنا الغزالي عن نزاع داخلي عنيف ، عن تردد بين تجاذب شهوات الدنيا ودواعي الآخرة ، دام « قريباً من ستة اشهر » ، اولها رجب سنة ٤٨٨ هـ = ١٠٩٥ م . ويخبرنا ان هذا التردد افضى به الى مرض ، بطلت معه قوة الهضم ، وضعفت القوى ، وعقل اللسان عن

١) المنقذ : ص ١٢٤

التدريس، وقطع الاطباء طمعهم من العلاج. وانتهى هذا التردد بان سهل الله على قلبه الزهد، فترك كل شيء، وغادر بغداد في ذي القعدة سنة ٤٨٨ هـ.

وانا نعتقد ان كثرة الدرس والتصنيف هو ما امرض الغزالي. وانه، اثناء هذا المرض، قويت عاطفة الخوف، وسطت فكرة الاخرة، وهان ما بقي من العمر، فقوي ذاك التردد، واشتد القلق، ثم كان الحدث الاكبر في حياة الغزالي. واذا نعكس الاحداث، ونجعل المرض علة لا معلولا.

ولكن ألا تكون الاحداث السياسية — كما ظن غير واحد — السبب الحقيقي لمغادرة الغزالي بغداد؟ والا لمَ يتظاهر بالذهاب الى الحج، وينوي السفر الى الشام؟ ثم لمَ يعود الى وطنه، وكان قد عزم الا يعود اليه؟

هذه اسئلة جديرة بان نبحثها، ونجيب عليها، ولكن دعنا، قبل ذاك، نطلعك على ما جرى للغزالي، منذ ترك التدريس في بغداد الى حين تركه ثانية في نيسابور.

وانا نعتمد خاصة رواية الغزالي في كتاب المنقذ، مشيرين بعد ذاك الى ما يستحق الاشارة في روايات مترجميه.

قال الغزالي في اماكن من المنقذ:

« ففارقت بغداد... ثم دخلت الشام، واقمت به قريباً من سنتين، لا شغل لي الا العزلة والخلوة... فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق، اصعد منارة المسجد كل النهار، واغلق بابها على نفسي.

« ثم رحلت منها الى بيت المقدس، ادخل كل يوم الصخرة، واغلق بابها على نفسي.

« ثم تحركت فيّ داعية الحج... فسرت الى الحجاز.

« ثم جذبتني الهمم، ودعوات الاطفال الى الوطن، فعاودته بعد

ان كنت ابعد الخلق عن الرجوع اليه. فآثرت العزلة ايضاً ، حرصاً على الخلوة ، وتصفية القلب للذكر. وكانت حوادث الزمان ، ومهمات العيال ، وضرورات المعاش ، تغير في وجه المراد ، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو الحال الا في اوقات متفرقة ، لكني مع ذلك لا اقطع طمعي منها ، فتدفعني عنها العوائق ، واعود اليها.

« ودمت على ذلك مقدار عشر سنين...

« ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة ، قريباً من عشر سنين... قدّر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج ، فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور... وبلغ الالزام حدّاً كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة[1]...

« ويسر الله الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم ، في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة. وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين واربعمئة.»

يقصّ علينا الغزالي هذه القصة ، وهو استاذ في نيسابور ، « وقد اناف السنّ على الخمسين » ، اي بعد سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م. ولا نظنه كتب المنقذ بعد هذه السنة بكثير ، ولا انه درّس طويلاً بعد كتابة المنقذ ، لاننا نعلم انه توفي سنة ٥٠٥هـ ، وانه عاد الى طوس في اواخر حياته ، واتخذ الى جانب داره مدرسة للفقهاء ، وخانقاه للصوفية. ولعل مصرع فخر الملك سنة ٥٠٠ هـ ، قد عجل في تركه التدريس في نيسابور ، كما ان مصرع نظام الملك ، سنة ٤٨٥ هـ = ١٠٩٢ ، قد

---

١) ان هذا السلطان هو سنجر ، الذي ولي خراسان نيابة عن اخيه بركيارق ، سنة ٤٩٠ هـ = ١٠٩٦ م. وجاء في طبقات الشافعية الكبرى ان فخر الملك ، وزير سنجر ، وابن نظام الملك ، هو الذي دعا الغزالي الى التدريس ، « والح عليه كل الالحاح ، وشدّد في الاقتراح ، الى ان اجاب.» ومن الطبيعي ان يلح ابن نظام الملك على صديق ابيه ، وقد الحّ باسم السلطان.

يكون اثر في تركه التدريس في بغداد . ولعله اعتزل نهائياً سنة ٥٠١ او ٥٠٢ على ابعد تقدير.

***

والآن نستطيع تقرير بعض اشياء :

١ — لا صحة لما ذكره السبكي عن الغزالي ، اذ قال : « ففارق دمشق ، واخذ يجول في البلاد ، فدخل منها الى مصر ، وتوجه منها الى الاسكندرية ، فاقام بها مدة ، وقيل انـه عزم على المضي الى السلطان يوسف بن تاشفين ، سلطان المغرب ، لما بلغه من عدله ، فبلغه موته . واستمر يجول في البلدان . » لا صحة لهذا القول ، لان الغزالي لم يذكر سفره الى الاسكندرية ، ولان يوسف بن تاشفين مات سنة ٥٠٠ هـ ، اي يوم كان يدرّس الغزالي في نيسابور ! وبالتالي لا صحة لكل ما يبنى على هذه النية من فروض سياسية .

٢ — لقد غادر الغزالي بغداد ، وعاد الى وطنه ، اثناء خلافة المستظهر بالله ، واذاً لم يكن للخليفة من تأثير في الذهاب او الاياب .

٣ — لا صحة لما تجده عند اكثر مترجمي الغزالي ، وهو انه قضى عشر سنين منذ مغادرته بغداد الى حين عودته الى طوس ، لان الغزالي قضى عشر سنين في العزلة ، بما فيها اقامته في طوس ، قبل عودته الى التدريس في نيسابور . وسياق حديث الغزالي يدل على ان اقامته في طوس قد طالت ، وانها كانت موزعة بين العزلة وضرورات العيش . ولعل غيبته عن وطنه لم تتجاوز خمس سنين .

٤ — واذاً لم يترك الغزالي بغداد لخصومة بينه وبين بركياروق ، ولم ينتظر موت بركياروق سنة ٤٩٨ هـ = ١١٠٤ م ليعود الى وطنه . ان بركياروق كان مرشح نظام الملك الى الحكم ، وانه دخل بغداد

سلطاناً سنة ٤٨٧ هـ = ١٠٩٤ م ، وان الغزالي استناب اخاه في التعليم ، على ما يروي السبكي ، وانه قد عاد الى وطنه قبل موت بركياروق . وبالتالي لا شيء يثبت خصومة بركياروق للغزالي ، بل كل شيء ينفيها .

ثم كيف تعلل سياسياً ترك الغزالي التعليم ، وتشرح بعد ذلك تآليفه في التصوف ، ولهجة الاخلاص في رواية هدايته ؟

لقد قتل نظام الملك ، وفسدت الحياة السياسية ، ومرض الغزالي ، ودعت الصوفية الى العزلة والزهد ، فذكر الغزالي نشأته ، وهانت في عينه الدنيا ، فسمع الصوت ، ولبى الدعوة .

واظهر الغزالي عزم الحج ، وهو ينوي الذهـاب الى الشام ، لان الشام كان من اوطان الصوفية الزاهرة ، فرام زيارته قبل الحجاز ، ولانه خاف ان تظن به الظنون ، وتقام في وجهه الحواجز ، ولانه كان عازماً على الحج حقاً .

اما عودته الى الوطن ، بعد ان كان نوى الّا يعود ، فتعللها براحة استقامت معها صحته ، وحنين جدّ فيه الى الاهل والاطفال ، كما يعترف هو نفسه . وكم ينوي الناس ولا يفعلون ! ومتى كان الاحجام عن الفعل سبباً كافياً للشك في النيّة ؟

◆◆◆

بقي ان نلم الماماً بنفسية الغزالي .

لقد كان الغزالي عقلًا ذكيًا ، وقد ادرك من نفسه تلك الهبة ، فاذا به كثير التطلع ، جم الفضول ، يتهجم على كل مسألة ، ويجادل في كل معضلة ، يطالع كل كتاب ، ويصنف في كل عقيدة ، وما اكثر ما طالع الغزالي وألف ، وما اكثر ما ناظر وبزّ الاقران .

وقد ادى ذلك بالغزالي الى المباهاة بذكائه ، والعجب بالنفس . الا تراه ينظر الى شبهات عصره ، وضلالات زمانه ، فيجد افضاحها

« ايسر من شربة ماء..[١] » ؟ ألا يحدثنا، حين يحدثنا عن تركه التدريس في بغداد، عن الحاح الولاة عليه بالبقاء ، ولوم ائمة العراق له ، وعن تعليل ذلك بقولهم : « هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم[٢] » ؟ ثم الا يعود الى التدريس في نيسابور ، لان سلطاناً الحّ ، وارباب قلوب نصحوا ، وصالحين رأوا منامات ، والهاً وعد « باحياء دينه على رأس كل مئة .[٣] » ؟

هو الشعور بذكائه ، وهي شهرة صلاحه ، دفعاه الى ان يباهي ، وان ينشر ما يؤثر الحياء طيّه . على انك قد تلطف من دهشتك ، اذا علمت ان صالحين كثيرين باهوا بما باهى به الغزالي ، وانه دائب على اصلاح نفسه ، ناسب الى الله كل فضل ، مؤمن ان لا حول ولا قوة الا به: «اني لم اتحرك ، ولكنه حركني ، واني لم اعمل ، ولكنه استعملني ، فاسأله ان يصلحني اولاً ، ثم يصلح بي ويهديني.»[٤]

وان اهل عصره رأوا فيه ما رأى من نفسه ، فرثاه الابيوردي من قصيدة :

مضى ، واعظم مفقود فجعت به من لا نظير له في الناس يخلفه !

❖●❖

---

١) المنقذ : ص ١٥٠

٢) المختارات : ص ٤٩

٣) المختارات : ص ٥١

اراؤه

الغزالي شخصية غنية الروح ، واسعة الاطلاع ، كثيرة الانتاج ، متشعبة المناحي .

وحياة الغزالي شطران — متباينان من وجوه ، مشتركان في اشياء — يفصلها انقلاب عميق ، واهتداء الى التصوف .

وعقل الغزالي كثير التطلع ، نفور من الانقياد ، نزوع الى اليقين ، عرضة للحيرة والقلق ، هدف لكل مهالك الذكاء .

واذا ليس من اليسير ان تجمع ما تبدد ، وتلأم ما تشعب ، ان تتبين ما تبدل ، ولا تذهل عما استمر ، وان تصور فكرة الغزالي في مذهب متماسك ، وعرض متناسق .

ومع ذلك ، لا بد من هذه المحاولة ، مهما اعترضها من عقبة ، وتعرضت له من خطأ .

❖◆❖

لقد رأى الغزالي اختلاف الخلق في الاديان ، وتعدد المذاهب في كل دين ، وسلطان التقليد في اعتناق هذه وتلك ، ووافق ذلك منه عقلاً ذكياً ، وثقة بالنفس ، فاذا به حائر امام تضارب الاراء ، واذا به يبحث عن الحق ، ويجد في طلب اليقين .

وفي سبيل الوصول الى حق ، والاستقرار على يقين ، تحرر من كل تقليد ، من الرضوخ لرأي امام ، او تعليم والد واستاذ ، ومن الركون الى ايمان موروث . وقد انتهى به هذا التحرر الى البحث عن صدق حسه وعقله ، فالى الشك فيهما .

ومن اجل اجتلاء الحق – بعد ان عاد الى الوثوق بالعقل – جدّ يبحث في صحة احدى فرق اربع : الكلام ، والباطنية ، والفلسفة ، والتصوف .

وبعد البحث والنقد ، وبعد الاختبار الصوفي ايضاً ، رأى ان الحق الخالص ، والنجاة من الهلاك ، لفي الطريقة الصوفية : « ان الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة ، وان سيرتهم احسن السير ، وطريقهم اصوب الطرق ، واخلاقهم ازكى الاخلاق . . . فان جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة ، على وجه الارض ، نور يُستضاء به . »[1]

◆◆◆

هذه هي الخطوط الكبرى لسير فكرة الغزالي ، كما عرضها لنا في قصة حياته ، في « المنقذ من الضلال » .

على ان الغزالي ، حين ألّف كتاب المنقذ ، كان صوفياً كبيراً ، له في نشر التصوف هوى ، وفي باقي العلوم رأي خاص . وبالتالي الا يكون تناسى عقلية الاستاذ في بغداد ، لكي يصل حاضره بماضيه ، ويجعل من التصوف هدف كل ابحاثه ؟

ان حياة الغزالي العقلية شطران ، يفصلها مغادرته التدريس في بغداد ، وان نظرته الى علوم عصره لم تكن واحدة فيهما ، وانّ من اتخذوا رواية المنقذ اساساً وحيداً لتحديد فكرة الغزالي قد ضلّوا واضلّوا .

وان كتاب المنقذ نفسه يظل سراً مغلقاً ، ومجموعة من المتناقضات اذا لم تنظر اليه من خلال عهدين ، وترى فيه جمعاً بين نفسيتين .

وان خير سبيل ، في نظرنا ، الى فهم الغزالي ، هو ان تدرس اولاً

---

(١) المنقذ ص ١٢٣

ما الفه في بغداد ، ثم ما كتبه بعد ذاك ، فترى ما تجدد في عهد التصوف ، وما استمر ، وكيف حاول الغزالي في منقذه ان يلائم بين حاضره وماضيه .

١ – عهد بغداد

خذ ما كتبه الغزالي في بغداد ، تجده عرضاً لمذهب الشافعي في الفقه ، وبسطاً لمذهب السنة الاشعري ، ودحضاً لتعاليم الباطنية والفلاسفة المخالفة ، وتجد الغزالي ، في تلك الحقبة ، لا يشك في عقل ، او يتردد لدى ايمان .

لقد كتب الغزالي في الفقه ، واوغل في خلافياته ، وما قال مرة انه يضيّع وقتاً ، او يصنف في علم بخس .

وقد كتب الغزالي في الكلام ، فبسط تعاليم الاشعرية فيه ، واوضح عقائده ومناحيه . وقد دافع الغزالي عن هذه العقائد ، فاثبت ما في الباطنية من اوهام ، واظهر ما لدى الفلاسفة من كفر او ضلال.[1] كتب الغزالي في الكلام ، ودافع عن عقائده ، وما حطّ مرة من شانه ، او نعى على اهله الجدل ، او اظهر منه نفوراً .

وقد تعرض الغزالي للعقل ، فحدّ من مداه ، وحكم بقصوره ، ورأى ان يذعن لتعليم الشرع مستنيراً بنور القرآن استنارة العين بنور الشمس . على انه لم يتحدث مرة عن شكه في صحة عقله ، او عن نور يعيد الثقة ، ويبعث الاطمئنان .

---

١) نعدّ كل ما كتبه الغزالي في الباطنية والفلسفة نوعاً من كتب الكلام ، وقد قال الغزالي نفسه ، في حديثه عن علم الكلام : « ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام عن تشويش المبتدعة . . . وبجنسه يتعلق الكتاب ، الذي صنفناه في خافت الفلاسفة ، والذي اوردناه في الرد على الباطنية . » (جواهر القرآن : ص ٣٥–٣٦) .

وقد تحدث الغزالي عن الايمان ، فرأى فيه رأي مسلم مؤمن . رأى ان فئة من الناس آمنت تقليداً ، لا بيقين برهاني ، وان هؤلاء مؤمنون حقاً ، لا ينبغي ان تشوش عليهم عقائدهم. وتكلم عن الفلاسفة ، فنعى عليهم ما يأتون من كفر ، لاستنكافهم « من القناعة باديان الآباء ، ظناً بان اظهار التكايس في النزوع عن تقليد الحق بالشروع في تقليد الباطل جمال ، وغفلةً منهم عن ان الانتقال الى تقليد عن تقليد خرق وخبال . فاية رتبة في عالم الله اخسّ من رتبة من يتجمل بترك الحق، المعتقد تقليداً ، بالتسارع الى قبول الباطل تصديقاً[1] ؟ » واذا لم يَرَ استاذ بغداد على التقليد ، او يدعُ الى خلع العقائد الموروثة .

◆◆◆

ان الغزالي ، يوم كان استاذاً في بغداد ، درّس ما كان يدرّسه اساتذة زمانه ، فكتب في الفقه ، والف في الكلام ، وكان فقهه وكلامه ما اخذه عن امام الحرمين ، ودان به السلطان.

وكان الغزالي يظهر في عقله ثقة ، وباسلامه ايماناً ، شأنه في ذلك شأن كل استاذ فطن حكيم.

٢ — عهد التصوف

ذاك كان استاذ النظامية في بغداد ، فما عساه اصبح حين اهتدى الى التصوف ؟

اجل انه لم يتنكر لكل ماضيه ، ولم يهدم كل ما بناه ، ولكنه انصرف الى افاق اوسع ، وبناء اضخم ، فحدّ من شأن ما شاد ، ودعا الى تسلق ذرى.

لقد ظل الفقه ، في نظره ، علماً نافعاً للناس ، على ان نفعه عائد

---

(١) تهافت الفلاسفة : ص ٥

الى صلاح الدنيا قبل الآخرة ، وسلامة الابدان قبل نجاة النفوس ، واستقامة الاعمال الظاهرة قبل طهارة الباطن. وان في الفقه مسائل باطلة هي مسائل الخلاف منه ، وما يستتبعه ذلك من جدل عقيم ، ومن منافسة . واذا نفع الفقه محدود ، والاقتصار فيه على الضروري اولى ، والانصراف الى ما فيه صلاح الآخرة اجدى . قال الغزالي في هذا العلم : « قد ضيّعنا شطراً صالحاً من العمر في تصنيف الخلاف منه، وصرفنا قدراً صالحاً منه الى تصانيف المذهب ، وترتيبه الى بسيط ، ووسيط ، ووجيز ، مع ايغال وتفريط في التشعيب والتفريع. وفي القدر الذي اودعناه كتاب خلاصة المختصر كفاية [1] . »

وقد دلّ الغزالي المتصوف على موقفه من الباطنية والفلاسفة ، واحتفظ في كتبه الصوفية بجلّ ما بسطه في علم الكلام من عقائد.

على ان الغزالي اصبح يحد من نفع علم الكلام ، ومن مكانته ، ويكثر من ذكر نقصه وضرره.

ان لعلم الكلام نفعاً واحداً ، وهو حراسة العقيدة بالرد على تشويشات المبتدعة ، ودفع الجدل بمثله .

اما ضرره ففي ما يثيره من شبهات في العقائد،ويبعث من ريب ، وفي ما يجرّ اليه من جدل عقيم ، ويحرك من تعصب ، وفي ما يدفع اليه من اصرار على الضلال ، وزيغ مع الهوى.

ثم كيف يسلك علم الكلام الطريق السويّ الى الاقناع ، وهو يستند الى القرآن والتقليد ، بينما يجادل من قد لا يقبل بغير مقدمات العقل ؟

وعلم الكلام بعد لا يطلعك على لباب الحق : « ليس عند المتكلم من الدين الا العقيدة ، التي يشاركه فيها سائر العوام ، وهي من جملة

١) جواهر القرآن : ص ٢٧

عمال ظاهر القلب واللسان . وانما يتميز عن العامي بصنعة المجادلة والحراسة. فاما معرفة الله تعالى ، وصفاته ، وافعاله . . . فلا يحصل من علم الكلام ، بل يكاد ان يكون الكلام حجاباً عليه ، ومانعاً منه. وانما الوصول اليه بالمجاهدة»[1].

❖◆❖

الفقه والكلام علمان نافعان ، انما هما في الطبقة السفلى من علوم الدين .

وان ثم علمين آخرين هما اعلى مقاماً ، وابلغ الى الكمال ، وانفذ الى الحق ، هما : علم المعاملة ، وعلم المكاشفة.

وهذان علمان جديدان حلّا محل الفقه والكلام.

ان يكن الفقه اشتغالاً بالاعمال الظاهرة، وطلاء على خارج البدن، فان علم المعاملة ولوج الى ثنايا القلب ، واطلاع على ما يعتريه من احوال ويعرض له من اخلاق ، ويداوى به من علاج . من علم المعاملة هذا ، تدرك الاخلاق المذمومة والمحمودة ، تدركها في «حقائقها، واسبابها ، وثمراتها ، وعلاجها»[2] ، وتدرك ما يترشح منها على الجوارح ، في العبادات والعادات . والغزالي قد صنف في هذا العلم اكبر كتبه ، كتاب احياء علوم الدين .

وان يكن الكلام جدلاً حول العقيدة ، وحجاباً دون اللباب ، فان علم المكاشفة هتك للحجب ، ونور على الحق ، واطمئنان الى اليقين .

ان القلب ، اذا تطهر من الصفات المذمومة ، وتعرّى من حب الدنيا ، شعّ فيه نور علوي ، وكشفت له اسرار الملكوت . وشأن

---

١) الاحياء : ١ : ١٧

٢) الاحياء : ١ : ١٦

القلب في ذلك شأن الارض المزروعة ، فالقلب « اذا فرغ من المذموم ، - امتلأ بالمحمود ، والارض اذا نقيت من الحشيش ، نبت فيهـا اصناف الزرع والرياحين[1] . »

وان ما ينكشف للانسان عن طريق هذا النور هو فهم عقائـد الكلام فهماً اكمل واعمق ، هو العلم بذات الله وصفاتـه وافعاله ، والعلم بالمعاد او اليوم الاخر .

على ان علم المكاشفة هـذا لحظ الصديقين والمقربين ، لا يجوز نشره في كتاب ، او التحدث به في ملأ . قال الغزالي : « وهذه العلوم الاربعة ، اعني علم الذات ، والصفات ، والافعال ، وعلم المعاد ، اودعنا من اوائله ومجامعه القدر الذي رزقنا منه ، مع قصر العمر ، وكثرة الشواغل والآفات ، وقلة الاعوان والرفقاء ، بعض التصانيف . لكننا لم نظهره ، فانه يكلّ عنه اكثر الافهام ، ويستضرّ به الضعفاء ، وهم اكثر المترسمين بالعلم . بل لا يصلح اظهاره الاعلى من اتقن علم الظاهر ، وسلك في قمع الصفات المذمومة من النفس ، وطرق المجـاهدة ، حتى ارتاضت نفسه ، واستقـامت على سواء السبيل ، فلم يبقَ له حظ في الدنيا ، ولم يبقَ له طلب الا الحق ، ورزق مع ذلك فطنة وقّادة ، وقريحة منقادة ، وذكاء بليغاً ، وفهماً صافياً . وحرام على من يقع ذلك الكتاب بيده ان يظهره الا على من استجمع هذه الصفات[2] . »

يحصل هـذا العلم اذاً للصوفي ، عن طريق الالهام ، وقد تطرق الغزالي ، في كتاب الاحياء ، الى البوح بشيء منـه ، حيث رأى ذلك ضرورياً لتوطيد علم المعاملة . وذهب بعضهم الى ان الغزالي قد اودع علم المكاشفة هذا في كتاب اسمه « المضنون به على غير اهله » . على

١) الاحياء : ١ : ٢٠

٢) جواهر القرآن ص ٢٠-٢١

اننا لم نجد في هذا الكتاب شيئاً من ذلك ، وبالتالي لسنا نطمئن كثيراً الى نسبته اليه .

❖❖❖

واذاً لقد كان الغزالي ، في بغداد ، يكتب في ظاهر الاعمال ، وظاهر العقيدة ، في الفقه والكلام ، اما يوم تصوف فقد عني بطهارة الداخل ، وانكشفت له اسرار الوحي ، فانصرف الى علمي المعاملة والمكاشفة .

وانه لتطور طبيعي ، وانصراف معقول ، جناهما الغزالي مما طالعه في كتب التصوف ، وخبره في تأملاته وخلواته .

❖❖❖

على ان الغزالي يطلعنا ، في كتبه الصوفية ، وفي المنقذ خاصة ، على اسرار من نفسية استاذ بغداد ، على موقفه من عقله وايمانه ، وانك لتدهش وتستغرب .

ان ثم نصوصاً تدل على ان الغزالي الشاب قد فقد الثقة بدينه ، وخلع ايمانه .

اليك اولاً هذا النص ، حيث يتحدث عن فئة من الناس لم تنفتح لهم طريق المعاني الروحانية في القرآن ، فيقول : « تشوشت عليهم الظواهر ، وانقدحت عندهم اعتراضات عليها ، وتخايل لهم ما يناقضها ، فبطل اصل اعتقادهم في الدين ، واورثهم ذلك جحوداً باطناً في الحشر والنشر ، والجنة والنار ، والرجوع الى الله تعالى بعد الموت ، واظهروها في سرائرهم ، والحلّ عنهم لجام التقوى . . . ولسنا نستبعد ذلك ، فلقد تعثرنا في اذيال هذه الضلالات مدة ، لشؤم اقران السوء وصحبتهم ، حتى ابعدنا الله عن هفواتها ، ووقانا من ورطاتها[1] . » وما هذا الم يكن اعترافاً

(١) جواهر القرآن : ص٤٤ – ٤٦

باعتقاد في الدين بطل اصله ، وجحود باطن أُخفي امره ، وعودة الى الهدى بعد تورّط في الضلال ؟

ثم اقرأ هذا النص الاخر ، فانه اوضح واصرح . قال الغزالي : « وقد كان التعطش الى درك الحقائق دأبي وديدني ، من اول امري ، وريعان عمري . . . حتى انحلّت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ، على قرب عهد بسن الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهوّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام . . . فتحرك باطني الى حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين .»[1] واقلّ ما يستنتج من هذا النص ، ان الغزالي ، امام تضارب الاديان ، لم يعد مطمئناً الى ايمانه الموروث ، فتعرّى من كل اعتقاد ، ونفض كل تقليد ، محققاً فيه حالة الفطرة الاولى ، باحثاً عما يركن اليه من دين .

وان الغزالي ، بعد ان يعرض لك ، في منقذه ، نقده للكلام ، والفلسفة ، والباطنية ، وينتهي بـه البحث الى الصوفية ، يجبهك بهذا البوح : « وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية ، ايمانٌ يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الاخر . فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت رسخت في نفسي ، لا بدليل معيّن محرّر ، بل باسباب وقرائن وتجاريب ، لا تدخل تحت الحصر تفاصيلها[2] » . واذا كان الغزالي قد شك مدة في الله ، والنبوة ، واليوم الاخر ، اي في الدين واسسه ، واذا لم يعد اليه الايمان بدليل معيّن — لان ذكاءه وتضارب الاراء قد افسدا عليه كل دليل

---

١) المختارات : ص ٤٣

٢) المنقذ : ص ١٢٦

— بل باسباب وقرائن وتجاريب ، يلجأ اليها — اخر ما يلجأ — عقل متزن متزن ، وفهم اعمق لاسرار الوجود ، فيترجح الايمان ، ثم يستوي ، ثم يتوطد .

❖◆❖

وان فقد الغزالي ايمانه ، وتحرره من كل تقليد ، دفعا به الى البحث المخلص عن الحق ، والى طلب اليقين .

وقد شرع فحدد العلم اليقيني .حدده بانه علم « ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك .بل الامان من الخطأ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة ، لو تحدّى باظهار بطلانه ، مثلاً ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورّث ذلك شكاً وانكاراً[1] » . وهذا التحديد لا يختلف ، كما ترى ، عما اعتاد الفلاسفة ان يحددوا به القياس البرهاني .

حدد الغزالي اليقين ، ثم شرع يبحث عنه في ما عنده من علوم ، فوجد نفسه « عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، الا في الحسيات والضروريات[2] » ، اي في ما يعرفه عن طريق الحس والعقل . ان الوحي معضلات واسرار ، وان تفهمه رهن قدرة الانسان على ادراك الحق ، واذا ما قدرة الحس والعقل ، وما يقين معارفها ؟

وبحث الغزالي في معلومات الحس اولاً ، فرآها خاطئة ، او عرضة للضلال : ألا نرى الظل جامداً ، وهو متحرك ؟ ألا نرى الكوكب صغيراً ، وهو اكبر من الارض ؟ واذاً لا ثقة بالحس ، ولا يقين في ما نعلمه عن طريقه !

---

١) المنقذ : ص ٧٠ — قال داكرت ، في بحث مماثل : « لا اسلّم بحقيقة ما لم تبد لي بوضوح ، ولا اشمل في احكامي الا ما ظهر لي بجلاء ودقة لا يبقى معهما مجال للشك . »

٢) المختارات : ص ٤٣

والعقل ما شأنه ؟

ان للعقل اوليات تبدو ثابتة ، من مثل « العشرة اكثر من الثلاثة، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً .[1]» وكاد الغزالي يركن الى عقله ، لولا شبهات عرضت له : لقد كان يثق بالحس الى ان اتى حاكم العقل فكذّبه ، فلعلّ وراء العقل حاكماً اخر ، اذا تجلّى ، كذّبه وضلّله ! ثم الا نعتقد في النوم اموراً ، وتظهر لنا اليقظة ضلالها ، فلمَ لا نكون في شبه نوم ، ويكون الموت يقظة واهم مخدوع ؟ ويدّعي الصوفية انهم يشاهدون في احوالهم اموراً لا توافق ما يراه العقلي ، افلا تكون الحالة الصوفية طريق الانسان الى الحق ؟ [2]

عرضت للغزالي هذه الشبهات ، وخطرت هذه الخواطر ، ففقد الثقة بعقله ، بعد ان فقدها بحسه . ودام في شكه هذا قريباً من شهرين، هو فيها « على مذهب السفسطة ، بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال [3] .» وهكذا تطرق الغزالي من شك الى شك ، من الشك في ايمانه الى الشك في عقله !

---

١) المختارات : ص ٤٤

٢) ان الغزالي يستقي شبهات شكه من الشكّاك اليونان . وقد ردّ اناسيداموس هذه الشبهات الى عشر ، وهي تعود في جوهرها الى ان الحقيقة نسبيّة ، تختلف :

ا – حسب الحالات المختلفة من نوم ويقظة ، وصحة ومرض ، وصحو وسكر ، وحب وبغض . . .

ب – حسب المسافات والامكنة ، فتبدو السفينة البعيدة صغيرة ثابتة ، حتى اذا اقتربت بدت كبيرة متحركة ، وتبدو العصا منكسرة في الماء، مستقيمة خارجه . . .

ج – باختلاف العادات والقوانين والاراء ، فالفرس يجيزون زواج الابناء من امهاتهم، ويجيز المصريون زواج الاخوة من اخواتهم، ويحظر القانون اليوناني كل ذلك واختلافات الاديان ومذاهب الفلاسفة مشهورة .

٣) المختارات ص ٤٥

اما خروج الغزالي من شكه هذا ، وتعليل ذلك الخروج فغامض ملتوٍ .

يؤكد لك الغزالي ، اولًا ، بانه عاد يثق بعقله، لا « بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر [1] » . على انه لا يلبث ان يأتيك بشبه دليل قائلًا :« والمقصود من هذه الحكايات ان يعلم كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة ، والحاضر ، اذا طلب ، فقد واختفى [1] » .

وكلا التعليلين عرضة للجدل .

اما النور ، الذي تلقاه في صدره ، فمن نوع النور الذي يهدي به الله الى الايمان، او يجود به في حال الكشف الصوفي. ويرى الغزالي ان نوراً كهذا يفترض ، في كلا الحالين ، تجافياً عن دار الغرور ، واقبالًا على محبة الله ، فكيف جاد به الله عليه ، وهو لما يتصوف ، بل لما يعد له الايمان ، ولما يقلع عن حب الدنيا ، وطلب الشهرة والمال ؟

واما ما اورده ، بعد ذلك ، من ان الاوليات غير مطلوبة ، لانها حاضرة ، فبرهان مأخوذ عن الفلاسفة ، وهو ان الاوليات العقلية لا يُطلب عليها دليل ، والا لذهبنا في سلسلة الادلة الى ما لا نهاية له ! وهذا البرهان ، بعد ، يدل على ان الاوليات واضحة بذاتها ، غير محتاجة الى دليل لاثبات صحتها ، ولكنه لا يدل على ان العقل لايغلط في ما يراه من وضوحها ، وليس واهماً مخدوعاً !

ومهما يكن ، بعد ، من ظهور نور للغزالي ، او ظهور دليل ، فان

---

١) المختارات : ص ٤٥

عقلاً شك في قدرته ، لا يسعه الاطمئنان الى نور او دليل ، وان خروج الغزالي من شكه الشامل لامر مستحيل ، ما لم يعبث بالمنطق ! [1]

ومع ذلك ، نعتقد ان الغزالي قد شك حقاً . اولاً ، لانه يؤكد لنا شكه ، والغزالي جدير بان يصدّق . وثانياً ، لان ما وهب الغزالي من ذكاء ، واطلع عليه من آراء ، وجادل فيه من حق ومن باطل ، لحريّ بان يهز ثقته باراء العقل ، وقدرة العقل نفسه ، وبأن تستوقفه سفسطات الشاكين .

ونعتقد ان الغزالي عاد الى الثقة بعقله ، لا لشيء اخر ، الا لان الشك في قدرة العقل لا يستقيم طويلاً وطبيعة العقل نفسه ، ولأنا مضطرون الى العمل في عالم يثق كله بعقله ! وان عبثه بالمنطق لامر محتوم ، بعد ان انتهى الى الشك الشامل . وان ما تذرع به من نور او دليل لنوع من تقديم التصوف ، او محاولة عقلية مخفقة .

◆◆◆

رأينا كيف شك الغزالي في عقله ، ثم كيف زال ذاك الشك بعد شهرين .

على انه لامر اهمّ ان نرى كيف تطرق ، بعد ذاك ، الى البحث عن الحق ، والانتهاء الى الايمان ، وكم دام ذاك التيه في ظلمات الريب .

وان اكثر من درسوا الغزالي لم يكلفوا انفسهم عناء التفكير ، فاخذوا كتاب المنقذ ، وعرضوا رواية نقده للفرق ، وانتهائه الى التصوف ، ذاهلين عما في هذه الرواية من وهن ، ومن متناقضات .

---

١) لقد عرض الشك ، قبل الغزالي ، للقديس اغسطينوس ، كما عرض بعده لداكرت ؛ وقد خرج منه الاثنان بالالتجاء الى ثبوت وجودهما ، فقال القديس اغسطينوس : « ان وجودنا امر لا نخاف فيه ان نخدعنا الظواهر ، لانه ثابت ان المخدوع هو ايضاً حي . » وقال داكرت : « اني افكر ، فانا اذاً موجود ! »

واليك رواية المنقذ هذه،مع بعض ما تثيره من دهشة ، وتستدرجه من اسئلة.

لقد رأينا الغزالي ، في ما سبق ، يؤكد لنا تحرره من كل تقليد، وخلعه كل ايمان موروث ، طلباً للحق الخالص. ثم رأيناه يشك في عقله ثم يثق به . فلنرَه الآن باحثاً عن ذاك الحق المنشود.

شرع الغزالي فرأى ان الحق لا يتجاوز احدى فرق اربع :الكلام، والباطنية ، والفلسفة ، والصوفية . وتتساءل مدهوشاً : أليس ثم اديان اخرى في العالم ، ومذاهب اخرى في الاسلام ؟

وتذهب بك الدهشة الى ابعد من ذلك ، اذ ترى الغزالي ينتقد الفرق ، وكأنه من اصدق المؤمنين ! ويكفيك ان تعرف انه لا يسلم بسوى الرسول اماماً معصوماً ، وانه يحكم بالزندقة على الفلاسفة الدهريين والطبيعيين ، لانهم كفروا بالله ، واليوم الاخر ، وانه كفّر الفلاسفة الالهيين ، لانهم قالوا بقدم العالم وانكروا حشر الاجساد . فكيف يبحث الغزالي جاداً عن ايمان ضائع ، وينقد ما ينقده باسم الاسلام ؟ ام كيف يصنع ذلك ، ثم يزعم، اذ ينتهي الى نقد الصوفية، انه قد حصل له ايمان بالله ، والنبوة ، واليوم الاخر ، اي ذاك الايمان نفسه الذي هداه في نقد الفرق السابقة ؟

ان ثم تناقضاً بيّناً في رواية المنقذ ، تدفع اليه النصوص دفعاً ،وان في هذه الرواية مشكلة نقد داخلي ، تتطلب حلًا معقولًا .

وانت لن تحل المشكلة ، اذ انكرت على الغزالي شكوكه ، او فرضتها نوعاً من الشك الاسلوبي ، لان المنطق يقضي بان تُنقد الفرق ، دون الاستناد الى الاسلام ، سواء شك الغزالي حقيقة في اسلامه ، ام ادّعى ذلك ادعاء.تاهيك عن انه لا فخر لمتصوف في مثل هذا الادعاء.

اما نحن فنظننا قد وفقنا الى حل لهذه المشكلة ، نعرضه عليك ، بعد ان نوجز في بعض كلمات ما عرضناه الى الآن.

٣ — الجمع بين العهدين

واليك ما نرى :

لقد كان الغزالي ، في بغداد ، استاذاً رسمياً ، يعلم الفقه الشافعي والكلام الاشعري ، اقتداء بالاساتذة الاخرين ، وعرضاً لما لقنه من امام الحرمين ، ودفاعاً عن عقيدة سلطان سني . لقد الف في الفقه ، وكتب في الكلام ، ورد على الباطنية والفلاسفة ، وجارى في ذلك ايمان البيئة ، وظن الناس فيه.

على انه كان ، في سره ، يضطرب لما يجده من اختلاف الاديان ، ويراه من صراع المذاهب ، فيلتبس عليه الحق ، ويتزعزع فيه الايمان ، يعتريه الريب ، ويضيع الاطمئنان ، فيبيت حائراً لا يركن الا دين.

وان الاراء الفلسفية لم تكن اقل تضارباً من الاديان والمذاهب ، وان الجدل في هذه وتلك كان يصور الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، فيفسد على العقل ثقته بنفسه ، وان سفسطات الشكاك اليونان كانت منتشرة معروفة ، فحدث للغزالي ما حدث من سير في مسالك الريب ، ومن الشك في عقله.

على ان شك الغزالي في عقله كان شكاً عارضاً ، وقد خرج منه لاستحالة البقاء فيه.

اما شكه في ايمانه فظل تردداً في السريرة ، لا يجرؤ على البوح به ، وظل الغزالي يعلم في الناس كما لو كان مؤمناً !

وكان المأزق حرجاً ، والمخرج منه صعباً . وما اظن تصوف الغزالي نزعة روحية صرفة ، تهدف الى التقى والخلاص ، وانما هو ايضاً نجاة

من قلق ، واستسلام عقل مجهود الى نور الهي مريح . ان تصوف الغزالي سير نحو كمال ، وعودة ايمان ايضاً .

وان الغزالي جمع في منقذه بين عهدين متباينين : لقد باح لنا بشك في عقله وايمانه يعود الى عهد بغداد ، وطلع علينا بنقد لفرق عصره تمليه عقيدة متصوف نيسابور . وان الغزالي حاول ربط النقد بالشك ، وقد اوهم مثل هذا الربط حين كان ينتقل من نقد فرقة الى نقد اخرى ، ولكن الرباط ظل خارجياً محضاً ، فغفل الغزالي مرات ، في نقده ، عن شكه السابق ، وكان في هذا النقد ما كان من استناد الى الوحي . وغفل الغزالي عن شكه ، حتى حين تحدث عن هذا الشك ، فدس فيه عقيدة صوفية ، وقال بنور الهي اعاد اليه الثقة بعقله .

وكأن الغزالي هدف في كل ذلك الى غاية ، هي ان يقتدي بـ قارئه ، فيتعرى من كل تقليد ، ثم يصغي اليه فيهتدي الى التصوف . وكثيراً ما تفسد الغايات سبل العقل ، وتعبث بالمنطق .

❖◆❖

رافقنا الغزالي الى الان في مختلف مراحله ، من شك في العقل الى ثقة به ، ومن شك في الايمان الى عودة اليه ، ومن اقبال على الفقه والكلام الى انكباب على علم احوال القلوب ، ومن طلب للدنيا الى زهد وتصوف . وقد حان لنا ان ننتقل الى عرض افكاره ، فنرى ما علم كمتكلم ، ثم ما شاد كصوفي .

واناً سنعرض ذلك في الجزء الثاني من دراستنا .

مصادر الدراسة

ان ما استندنا اليه ، في درسنا الغزالي ، من مصادر عربية واعجمية للائحة تطول . لهذا آثرنا اثبات اهم تآليف الغزالي المطبوعة ، ملمين الماماً بموضوعها الاساسي . واننا نقسم هذه التآليف اقساماً اربعة :

ا ــ في الفقه

١ – المستصفى في علم الاصول : كتاب في اصول الفقه ، وضعه الغزالي بعد عودته الى التدريس في نيسابور . وهذه الاصول هي : كتاب الله ، والسنة ، واجماع المسلمين .

٢ – الوجيز في مذهب الامام الشافعي .

ب ــ في الكلام :

نثبت تحت هذا العنوان ما ألفه الغزالي عرضاً لعقيدة السنة ، او دفاعاً عنها ضد الباطنية والفلاسفة ، لاننا نعد كل ذلك — كما يعده الغزالي نفسه — متصلاً بعلم الكلام :

١ – الاقتصاد في الاعتقاد : المطبعة الادبية ، مصر : كُتب قبل احياء علوم الدين ، وهو بحث في ذات الله ، وصفاته ، وافعاله ، ورسله ، على طريقة المذهب الاشعري اجمالاً .

٢ – إلجام العوام عن علم الكلام : ردّ على الحشوية ، على اعتقادهـا في الله ما يتقدس عنه من الصورة واليـد ، والقدم ، والجلوس على العرش ، وما يجري مجراه .

٣ – فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة : الكفر تكـذيب الرسول . وان لتأويل القرآن قوانين ، يجب التقيد بها ، للسلامة من الكفر .

❖◆❖

٤ – القسطاس المستقيم : احـد كتب الغزالي الكثيرة في الرد على الباطنية . ويرى الغزالي ان معرفة المنطق كافية لتمييز الحق عن الباطل ، فالاستغناء عن الامام المعصوم . والكتاب في جوهره عرض لقياسات منطقية .

❖◆❖

٥ – مقاصد الفلاسفة : كتاب ألفه الغزالي اثناء تدريسه في بغداد ، وقد عرض فيه فلسفة الفارابي وابن سينا ، تمهيدًا للرد عليها في كتاب التهافت : « ان الوقوف على فساد المذاهب ، قبل الاحاطة بمداركها ، محال ، بل هو رمي في العماية والضلال . فرأيت ان اقدّم على بيان تهافتهم كلاماً وجيزًا ، مشتملًا على حكايـة مقاصدهم من علومهم المنطقية ، والطبيعية ، والالهية ، من غير تمييز بين الحق منها والباطل . »

٦ – تهـافت الفلاسفة : المطبعة الكاثوليكية ، بيروت : هو اعنف حملة شنها متكلم على الفلسفة . وقد حـاول الغزالي اظهار ما في فلسفة الفارابي وابن سينا من كفر ومن ضلال ، وما في نظرياتهما من تناقض ، وفي ادلتهما من وهن . وقـد دار رده حول عشرين مسألة ، تناول فيها قِدَم العالم ، وطبيعة الله ، وروحانية النفس .

ونعد هذا الكتاب تأليفاً كلاميًا ، لا تأليفاً فلسفياً ، او قل نوعاً

من الجدل المزمن بين الدين والفلسفة . ذاك ان الغزالي لا يهدم فلسفة معلومة — فلسفة الفارابي وابن سينا — ليبني فلسفة اخرى خاصة ، وانما يهدم الفلسفة جملة ، ويحط من قدرة العقل ، ليرفع من قدر الوحي ، ويعلي من شأن النبوة. وان الغزالي بعد حريص على الهدم واظهار التناقض ، اكثر مما هو حريص على اظهار الحق او الاقتناع بالحجة.

وان ما اتى به الغزالي ، اثناء جدله ، من براهين عقلية ، ونظريات فلسفية طريفة ، لامر اقتضاه الجدل ، وما نظن الغزالي — كما يبوح هو نفسه — معتقداً كل ما يقول.

٧ – معيار العلم : كتاب في المنطق ، اراد من وضعه تأليفاً في هذا الموضوع ، واطلاع القارئ على ما استعمله من اصطلاحات منطقية في كتاب التهافت.

ج – في التصوف :

١ – إحياء علوم الدين : المطبعة العامرة ، مصر ، ١٣٢٦ هـ :

غرّة كتب الغزالي ، شرع في تأليفه اثناء سياحاته الصوفية ، ولعله لم ينجزه في صيغته النهائية الا في اواخر عمره.

قال الغزالي ممهداً لهذا الكتاب : « رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب . . . احياء لعلوم الدين ، وكشفاً عن مناهج الائمة المتقدمين ، . . . وقد اسسته على اربعة ارباع ، وهي ربع العبادات ، وربع العادات ، وربع المهلكات ، وربع المنجيات . . .

ويشتمل ربع العبادات على عشرة كتب : كتاب العلم ، وكتاب قواعد العقائد ، وكتاب اسرار الطهارة ، وكتاب اسرار الصلاة ، وكتاب اسرار الزكاة ، وكتاب اسرار الصيام ، وكتاب اسرار الحج ،

وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وكتاب ترتيب الاوراد في الاوقات.

واما ربع العادات فيشتمل على عشرة كتب: كتاب آداب الأكل ، وكتاب آداب النكاح ، وكتاب احكام الكسب ، وكتاب الحلال والحرام ، وكتاب آداب الصحبة والمعاشرة مع اصناف الخلق ، وكتاب العزلة ، وكتاب آداب السفر ، وكتاب السماع والوجد ، وكتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكتاب آداب المعيشة واخلاق النبوة.

واما ربع المهلكات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب شرح عجائب القلب ، وكتاب رياضة النفس ، وكتاب آفات الشهوتين ، شهوة البطن وشهوة الفرج ، وكتاب آفات اللسان ، وكتاب آفات الغضب والحقد والحسد ، وكتاب ذم الدنيا ، وكتاب ذم المال والبخل ، وكتاب ذم الجاه والرياء ، وكتاب ذم الكبر والعجب ، وكتاب ذم الغرور.

واما ربع المنجيات فيشتمل على عشرة كتب : كتاب التوبة ، وكتاب الصبر والشكر ، وكتاب الخوف والرجاء ، وكتاب الفقر والزهد ، وكتاب التوحيد والتوكل ، وكتاب المحبة والشوق والانس والرضا ، وكتاب النية والصدق والاخلاص ، وكتاب المراقبة والمحاسبة ، وكتاب التفكر ، وكتاب ذكر الموت » .

وكأن هذا الكتاب دائرة معارف لما علم الاسلام في العقائد والاخلاق ، وانه لاعمق كلمة فاهت بها خلوات الغزالي.

٢ – كتاب الاربعين في اصول الدين : كُتب بعد كتاب الاحياء ، وهو مثله اربعة ارباع ، وكأنه مختصر له.

٣ – كيمياء السعادة : بهذه الكيمياء يتحول القلب من الرذيلة الى الفضيلة ، على نحو ما جاء في كتاب « عجائب القلب » من ربع المهلكات.

٤ – الرسالة اللدنية : العلوم اما انسانية كالعلوم الشرعية والفلسفية ، واما ربانية او لدنية ، وهي ما تنال بالالهام الصوفي . والعلم اللدني يغنيك عن العلم الانساني.

٥ – رسالة الطير : رسالة رمزية صوفية : اجتمعت انواع الطيور ، واختارت العنقاء لها ملكاً . ولما كانت العنقاء تسكن الغرب ، جدّت الطيور في طلبها ، حتى اذا مات اكثرها في الطريق ، وبلغ الباقون الغاية ، علموا انهم انما بارادة الملك قد اتوا اليه : « انتم بانفسكم جئتم ، ام نحن دعوناكم ؟ انتم اشتقتم ام نحن شوقناكم ؟ نحن اقلقناكم فحملناكم في البر والبحر . »

٦ – ايها الولد : رسالة يحث فيها الغزالي تلميذاً انهى علومه على ان يقرن العلم بالعمل .

٧ – ميزان العمل : مطبعة كردستان : قال الغزالي في مقدمته : « نبين ان الفتور عن طلب السعادة حماقة ، ثم نبين ان لا طريق الى السعادة الا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم نبين العمل المسعد وطريقه . »

٨ – الدرة الفاخرة : وصف لما يحدث للانسان بعد الموت .

٩ – جواهر القرآن : مطبعة كردستان ، مصر : فيه تقسيم للعلوم الدينية .

د – في ترجمة حياته

المنقذ من الضلال : مطبعة الترقي بدمشق ، ١٩٣٩ : يطلعنا الغزالي ، في هذا الكتاب ، على شكه ، وبحثه عن الحقيقة في علم الكلام ، والفلسفة ، والباطنية ، والصوفية ، وعلى ما جرى له خلال ذلك من حالات عقلية ونفسية ، وحوادث خارجية مهمة .

مختارات

لقد اهملنا ، في مختاراتنا من الغزالي ، كتاب تهافت الفلاسفة ، كما اهملناه – او كدنا – في دراساتنا ، آملين العودة اليه في دراسة مستقلة .

وقد حاولنا اختيار نصوص بارزة ، تروي قصة حياة ، او تعبر عن رأي ، تحلل اميال النفس ، او تدعو الى التقى .

وقد رأينا ان نلائم بين الدراسة والمختارات ، فأرجأنا ما تخيرناه من كتابي الاقتصاد والاحياء الى الجزء الثاني ، ونشرنا في هذا الجزء النصوص التالية :

١ – من المنقذ من الضلال : غاية الرسالة – الشك في الايمان – ما اليقين ؟ – الشك في الحس والعقل – اغاليط الفلاسفة – النزاع الحاسم – الانبياء أطباء القلوب – رجوع ورجوع !

٢ – من رسالة ايها الولد : اكثر صفحاتها .

٣ – من ميزان العمل : معنى المذهب – اعمل وان غير مؤمن !

٤ – من كتاب الاحياء : نصاً في علم الكلام .

غاية الرسالة

سألتني ، أيها الاخ ، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفِرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولًا من علم الكلام ، وما اجتويته ثانياً من طرق أهل التعليم القاصرين ، لدرك الحق ، على تقليد الامام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف ، وما انجلى لي ، في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني إلى معاودتي بنيسابور ، بعد طول المدة ، فابتدرت لاجابتك الى مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك . . .

الشك في الايمان

اعلموا — أحسن الله تعالى ارشادكم ، وألان للحق قيادكم — ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الائمة في المذاهب ، على كثرة الفرق وتباين الطرق ، بحرٌ عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه الا الاقلون . وكل فريق يزعم انه الناجي . . .

ولم ازل في عنفوان شبابي ، منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد أناف السن على الخمسين ، اقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص

عن عقيدة كل فرقة ، واستكشف اسرار مذهب كل طائفة . . .

وقد كان التعطش الى درك حقائق الامور دأبي وديدني من اول امري وريعان عمري ، غريزة وفطرةً من الله وضعتا في جبلّتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلّت عني رابطة التقليد ، وانكسرت عليّ العقائد الموروثة ، على قرب عهدٍ بسنّ الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوء الا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوء لهم الا على التهوّد ، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم الا على الاسلام . وسمعت الحديث المرويّ عن رسول الله ، صلى عليه وسلم ، حيث قال : « كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى ٱلْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ وَيُنَصِّرَانِهِ وَيُمَجِّسَانِهِ » ، فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الاصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والاستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، واوائلها تلقينات ، وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات .

ما اليقين ؟

فقلت في نفسي : أولًا ، إنما مطلوبي العلمُ بحقائق الامور ، فلا بدّ من طلب حقيقة العلم ما هي : فظهر لي أن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك . بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنةً لو تحدّى باظهار بطلانه ، مثلًا ، من يقلب الحجر ذهباً ، والعصا ثعباناً ، لم يورّث ذلك شكًّا وإنكاراً . فاني إذا علمت ان العشرة اكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة اكثر ، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشكّ بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه . فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا اعلمه على هذا الوجه ، ولا أتيقّنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ، ولا أمان معه . وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

الشك في الحس والعقل

ثم فتشت عن علومي ، فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة ، إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات الا من الجليّات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بدّ من إحكامها أولاً لاتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات ، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليدات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محقّق لا غدر فيه ولا غائلة له ؟ فأقبلت بجدّ بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني ان اشكك نفسي فيها . فانتهى بي طول التشكيك الى ان لم تسمح نفسي بتسليم الامان في المحسوسات ايضاً ، واخذ يتسع الشك فيها ويقول : من اين الثقة بالمحسوسات ، وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ، ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعةً بغتةً ، بل على التدريج ذرةً ذرةً ، حتى لم تكن له حالة وقوف ؟ وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً ، في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار ؟ هذا وامثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذّبه حاكم العقل ويخوّنه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات ايضاً . فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة

اكثر من الثلاثة،والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . فقالت المحسوسات : بم تأمن ان تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنتَ واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذّبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمرّ على تصديقي ؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذّب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت إشكالها بالمنام ، وقالت : أما تراك تعتقد في النوم اموراً ، وتتخيل احوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك اصل وطائل ؟ فبمَ تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك ، بحس او عقل ، هو حق بالاضافة الى حالتك التي انت فيها ، لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ؟ ا فاذا وردت تلك الحالة ، تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها . ولعل تلك الحالة ما يدّعيه الصوفية انها حالتهم ، اذ يزعمون انهم يشاهدون في احوالهم ، التي لهم ، اذ غاصوا في انفسهم وغابوا عن حواسهم ، احوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » . فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة ، فاذا مات ، ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن . . .

فلما خطرت لي هذه الخواطر ، وانقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً ، فلم يتيسر ، اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية ، فاذا لم تكن مسلّمة لم يمكن

ترتيب الدليل . فاعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين ، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً ، موثوقاً بها على أمن ويقين . ولم يكن ذلك بنظم دليل ، وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر . وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحررة ، فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة . ولما سئل رسول الله عليه السلام عن « الشرح » ومعناه ، في قوله تعالى : « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام . » فقال : « هو نور يقذفه الله تعالى في القلب . » فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال عليه السلام فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره . » فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف . وذلك النور ينبجس من الجود الالهي ، في بعض الاحايين ، ويجب الترصد له ، كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات ، ألا فتعرَّضوا لها ! »

والمقصود من هذه الحكايات ان يُعلم كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى .

اغاليط الفلاسفة

اما الالهيات ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبراهين على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب ارسطاطاليس فيها من مذهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين

اصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولابطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنفنا كتاب التهافت .

اما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة المسلمين ، وذلك في قولهم :

١ — ان الاجساد لا تحشر ، وانما الثواب والمعاقب هي الارواح المجردة ، والمثوبات والعقوبات روحانية ، لا جسمانية . ولقد صدقوا في اثبات الروحانية ، فانها كائنة ايضاً ، ولكن كذبوا في انكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة في ما نطقوا فيه .

٢ — ومن ذلك قولهم : ان الله تعالى يعلم الكليات ، دون الجزئيات . وهذا ايضاً كفر صريح ، بل الحق انه « لا يعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات ولا في الارض . »

٣ — ومن ذلك قولهم بقدم العالم وازليته ، فلم يذهب احد من المسلمين الى شيء من هذه المسائل .

واما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم انه عليم بالذات ، لا بعلم زائد ، وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ، ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك .

النزاع الحاسم

وكان قد ظهر عندي انه لا مطمع في سعادة الآخرة الا بالتقوى ، وكفّ النفس عن الهوى . وان رأس ذلك كله قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود ، والاقبال بكُنْه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالاعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ، فاذا انا منغمس في العلائق ، وقد احدقت بي من الجوانب . ولاحظت اعمالي ، واحسنها التدريس والتعليم ، فاذا انا فيها

مقبل على علوم غير مهمة ، ولا نافعة في طريق الآخرة.

ثم تفكرت في نيتي في التدريس ، فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ؛ بل باعثها ومحركها طلب الجاه ، وانتشار الصيت . فتيقنت اني على شفا جرف هار ، واني قد أشفيت على النار ، ان لم اشتغل بتلافي الاحوال.

فلم ازل اتفكر فيه مدة، وانا بعد على مقام الاختيار ، أُصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، وأحل العزم يوماً واقدم فيه رجلًا ، واؤخر عنه اخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، الا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية. فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المُقام ، ومنادي الايمان ينادي: الرحيل ! الرحيل ! فلم يبقَ من العمر الا القليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما انت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل ! فان لم تستعد الآن للاخرة ، فمتى تستعد ؟ وان لم تقطع الآن هذه العلائق ، فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ، ويقول : « هذه حال عارضة ، اياك ان تطاوعها ، فانها سريعة الزوال . فان اذعنت لها ، وتركت هذا الجاه العريض ، والشان المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والامن المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة.»[1]

---

١) ان هذا النزاع النفسي ، الذي هزّ الغزالي في اعماقه ، لشبيه بما حدث للقديس اغسطينوس ، عندما دعاه الله اليه . واليك مقطعاً من « الاعترافات » يصور لك تلك العاصفة الداخلية :

« في قلقي القاسي كنت اوبخ نفسي أكثر من العادة ، وانقلب متمرغاً في قيودي لاكمل قطعها . . . كنت مقيداً بنوافل سافلة ، باباطيل مخجلة ، بصديقات الامس اللواتي كن كاهن يجذبنني بثياب الجسد ، ويهمسن في اذني : اتتركنا ؟ ولن نسكن معك الى الابد ! وسيحرم عليك كذا وكذا الى الابد ! وما كانت ، الهي ، هذه

فلم ازل اتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة اشهر ، اولها رجب سنة ثمان وثمانين واربعمئة . وفي هذا الشهر ، جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت اجاهد نفسي ان ادرّس يوماً واحداً ، تطبيباً لقلوب المختلفة الي ، فكان لا ينطلق لساني بكلمة ، ولا استطيعها البتة ، حتى اورثت هـذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ، ومرامة الطعام والشراب ، فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم لقمة . وتعدّى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج ، وقالوا : هذا امر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بان يتروح السر عن الهم المِلم .

ثم لما احسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فاجابني الذي « يجيب المضطر اذا دعاه »[1] ، وسهل على قلبي الاعراض عن الجاه والمال والاولاد والاصحاب . واظهرت عزم الخروج الى مكة ، وانا ادبّر في نفسي سفر الشام ، حذراً ان يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي في المقام بالشام . فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد ، على عزم ان لا اعاودها ابداً . واستهدفت لاعنة اهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز ان يكون الاعراض عما كنت فيه سبباً دينياً ، اذ ظنوا ان ذلك هو المنصب الاعلى في الدين . وكان ذلك مبلغهم من العلم .

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات ، وظن من بعد عن العراق ان ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة . واما من قرب من الولاة ، وكان

الاشياء التي يوقظن صورها فيّ ؟ امحُها برأفتك من ذكريات عبدك ! بالها من فظائع مخجلة ! » .

١) سورة النمل : ٦٢

يشاهد الحاحهم في التعلق بي ، والانكباب عليَّ ، واعراضي عنهم ، وعن الالتفات الى قولهم ، فيقولون : هذا امر سماوي ، وليس له سبب الا عين اصابت اهل الاسلام ، وزمرة العلم !

الانبياء اطباء القلوب

ثم اني لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين ، وبان لي في اثناء ذلك على الضرورة من اسباب لا احصيها ، مرةً بالذوق ، ومرةً بالعلم البرهاني ، ومرةً بالقبول الايماني : ان الانسان خلق من بدن وقلب ، وأعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله ، دون اللحم والدم ، الذي يشارك فيه الميت والبهيمة . وان البدن له صحة بها سعادته ، ومرضٌ فيه هلاكه . وان القلب كذلك له صحة وسلامة ، ولا ينجو « إلا من أتى الله بقلب سليم » ، وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخروي ، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرضٌ » . وان الجهل بالله سم مهلك ، وان معصية الله ، بمتابعة الهوى ، داؤه المرض . وان معرفة الله تعالى تریاقه المحيي ، وطاعته بمخالفة الهوى ، دواؤه الشافي . وانه لا سبيل الى معالجته ، بازالة مرضه وكسب صحته ، الا بادوية ، كما لا سبيل الى معالجة البدن الا بذلك . وكما ان ادوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها ، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل ، بل يجب فيها تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء ، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء ، فكذلك بان لي ، على الضرورة ، ان ادوية العبادات بحدودها ، ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء ، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء ، بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة ، لا ببضاعة العقل . . .

فالانبياء اطباء امراض القلوب ، وانما فائدة العقل وتصرفه ان

عرّفنا ذلك ، ويشهد للنبوة بالتصديق ، ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، واخذ بايدينا،وسلمنا اليها تسليم العميان الى القائدين، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين . والى ههنا مجرى العقل ومخطاه ، وهو معزول عما بعد ذلك ، الا عن تفهم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه امور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة في مدة الخلوة والعزلة .

رجوع ورجوع !

ثم قلت في نفسي : متى تشتغل انت بكشف هذه الغمة ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعاداك اهل الزمان باجمعهم ؟ والى تقاومهم ، فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك الا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة ، وتعللًا بالعجز عن اظهار الحق بالحجة . فقدر الله تعالى ان حرّك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج . فامر امر الزام بالنهوض الى نيسابور، لتدارك هذه الفترة ، وبلغ الالزام حدًا كان ينتهي ، لو اصررت على الخلاف ، الى حدّ الوحشة . فخطر لي ان سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي ان يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عزّ النفس وصونها عن أذى الخلق . . .

فشاورت في ذلك جماعةً من ارباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية . وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بان هذه الحركة مبدأ خير ورشد ، قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المئة ، وقد وعد الله سبحانه

باحياء دينه على رأس كل مئة . فاستحكم الرجاء وغلب حسن الظن بسبب هذه الشهادات ، ويسر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة سنة تسع وتسعين واربعمئة . وكان الخروج من بغداد سنة ثمان وثمانين واربعمئة . . .

وانا اعلم اني ، وان رجعت الى نشر العلم ، فما رجعت ! فان الرجوع عود الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان انشر العلم الذي به يكسب الجاه ، وادعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . واما الآن ، فادعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف بـه سقوط رتبة الجاه ، هذا هو الآن نيتي وقصدي وأُمنيتي ، يعلم الله ذلك مني . وانا ابغي ان أُصلح نفسي وغيري ، ولست ادري أأصل الى مرادي ام أُحترم دون غرضي . ولكني اومن ايمان يقين ومشاهـدة انه لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم ، واني لم اتحرك لكنه حركني ، واني لم اعمل ، لكنه استعملني . فاسأله ان يصلحني اولًا ، ثم يصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ، وان يريني الحق حقًا ، ويرزقني اتبـاعه ، ويريني البـاطل باطلًا ، ويرزقني اجتنابه .

معنى المذهب

لعلك تقول : كلامك ، في هذا الكتاب ، انقسم الى ما يطابق مذهب الصوفية ، والى ما يطابق مذهب الاشعرية وبعض المتكلمين ، ولا يفهم الكلام الا عـلى مذهب واحد ، فما الحق من هذه المذاهب ؟ فان كان الكل حقاً ، فكيف يتصور هذا ؟ وان كان بعضه حقاً ، فما ذلك الحق ؟

فيقال لك : اذا عرفت حقيقة المذهب ، لا تنفعك قط ، اذ الناس فيه فريقان :

فريق يقول : المذهب اسم مشترك لثلاث مراتب :

احداها ما يتعصب له في المباهاة والمناظرات.
والاخرى ما يسار به في التعليمات والارشادات.
والثالث ما يعتقده الانسان في نفسه، مما انكشف له من النظريات.
ولكل كامل ثلاثة مذاهب، بهذا الاعتبار.

فاما المذهب، بالاعتبار الاول، فهو نمط الآباء والاجداد، ومذهب المعلم، ومذهب اهل البلد الذي فيه النشوء. وذلك يختلف بالبلاد، والاقطار، والمعلمين. فمن ولد في بلد المعتزلة، او الاشعرية، او الشفعوية، او الحنفية، انغرس في نفسه، منذ صباه، التعصب له، والذب دونه، والذم لما سواه... ومبدأ هذا التعصب حرص جماعة على طلب الرياسة، باستتباع العوام، ولا تنبعث دواعي العوام الا بجامع يحمل على التظاهر، فجعلت المذاهب في تفصيل الاديان جامعاً. فانقسم الناس فرقاً، وتحركت غوائل الحسد والمنافسة، فاشتد تعصبهم، واستحكم به تناصرهم...

المذهب الثاني ما ينطبق في الارشاد والتعليم، على من جاء مستفيداً، مسترشداً. وهذا لا يتعين على وجه واحد، بل يختلف بحسب المسترشد، فيناظر كل مسترشد بما يحتمله فهمه... فالمذهب، بهذا الاعتبار، يتغير ويختلف، ويكون مع كل واحد، على حسب ما يحتمله فهمه.

المذهب الثالث ما يعتقده الرجل سراً، بينه وبين الله عزّ وجلّ، لا يطلع عليه غير الله تعالى، ولا يذكره الا مع من هو شريكه في الاطلاع على ما اطلع، او بلغ رتبة يقبل الاطلاع عليه ويفهمه...

فهذا طريق فريق من الناس. واما الفريق الثاني، وهم الاكثرون، فيقولون: المذهب واحد، هو المعتقد، وهو الذي ينطق به تعليماً وارشاداً، مع كل آدمي، كيفما اختلفت حاله، وهو الذي يتعصب له. وهو اما مذهب الاشعري، او المعتزلي، او الكرامي، او اي مذهب من المذاهب. والاولون يوافقون هؤلاء على انهم لو سئلوا عن المذهب انه

واحد او ثلاثة ، لم يجز ان يذكر انه ثلاثة ، بل يجب ان يقال انه واحد .

وهذا يبطل تعبك بالسؤال عن المذهب ، ان كنت عاقلاً . فان الناس متفقون على النطق بان المذهب واحد ، ثم يتفقون على التعصب لمذهب ابيهم ، او معلمهم ، او اهل بلدهم . ولو ذكر ذاكر مذهبه ، فما منفعتك فيه ، ومذهب غيره يخالفه ، وليس مع واحد منهم معجزة يترجح بها جانبه . فجانب الالتفات الى المذاهب ، واطلب الحق بطريق النظر ، لتكون صاحب مذهب ، ولا تكن في صورة اعمى ، تقلد قائداً يرشدك الى طريق ، وحواليك الفٌ مثل قائدك ينادون عليك بانه اهلكك ، واضلك عن سواء السبيل ..

ولو لم يكن في مجاري هذه الكلمات الا ما يشكك في اعتقادك الموروث ، لتنتدب للطلب ، فناهيك به نفعاً . اذ الشكوك هي الموصلة الى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال ، نعوذ بالله من ذلك .

علم الكلام

نقول ان فيه منفعة ، وفيه مضرة . فهو باعتبار منفعته ، في وقت الانتفاع ، حلال ، او مندوب اليه ، او واجب ، كما يقتضيه الحال . وهو باعتبار مضرته ، في وقت الاستضرار ومحله ، حرام .

اما مضرته فاثارة الشبهات ، وتحريك العقائد ، وازالتها عن الجزم والتصميم . فذلك مما يحصل في الابتداء . ورجوعها بالدليل مشكوك فيه ، ويختلف فيه الاشخاص . فهذا ضرره في الاعتقاد الحق .

وله ضرر اخر في تأكيد اعتقاد المبتدعة للبدعة ، وتثبيته في صدورهم ، بحيث تنبعث دواعيهم ، ويشتد حرصهم على الاصرار عليه ، ولكن هذا الضرر بواسطة التعصب الذي يثور من الجدل . . .

واما منفعته ، فقد يظن ان فائدته كشف الحقائق ، ومعرفتها على ما هي عليه ، وهيهات فليس في الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف. ولعل التخبيط والتضليل فيه اكثر من الكشف والتعريف. وهذا اذا سمعته من محدث او حشوي ، ربما خطر ببالك ان الناس اعداء ما جهلوا. فاسمع هذا ممن خبر الكلام ، ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة ، وبعد التغلغل فيه الى منتهى درجة المتكلمين ، وجاوز ذلك الى التعمق في علوم اخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق ان الطريق الى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود. ولعمري ، لا ينفك الكلام عن كشف وتعريف ، وايضاح لبعض الامور ، ولكن على الندور ، في امور جلية ، تكاد تفهم قبل التعمق في صنعة الكلام.

بل منفعته شيء واحد ، وهو حراسة العقيدة ، التي ترجمناها على العوام ، وحفظها عن تشويشات المبتدعة ، بانواع الجدل. فان العامي ضعيف ، يستفزه جدل المبتدع ، وان كان فاسداً ، ومعارضة الفاسد بالفاسد تدفعه.

(الاحياء : ١ : ٧٢)

ايها الولد

ايها الولد : النصيحة سهلة ، والمشكل قبولها ، لانها في مذاق متبعي الهوى مرّة ، اذ المناهي محبوبة في قلوبهم ، وعلى الخصوص لمن كان طالب العلم الرسمي ، ومشتغلاً في فضل النفس ، ومناقب الدنيا. فانه يحسب ان العلم المجرد له ستكون نجاته وخلاصه فيه ، وانه مستغنٍ عن العمل ، وهذا اعتقاد الفلاسفة. سبحان الله العظيم ، لا يعلم هذا المغرور انه حين حصل العلم ، اذا لم يعمل به ، تكون الحجة عليه آكد ، كما قال رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم : اشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله علمه. وروي ان الجنيد ، قدّس الله سرّه ، رؤي في المنام بعد موته ، فقيل

له : ما الخبر ، يا ابا قاسم ؟ قال : طاحت تلك العبارات ، وفنيت تلك الاشارات ، وما نفضنا الا ركيعات ركعناها في جوف الليل !

❖◆❖

ايهـا الولد : كم من ليالٍ احييتها بتكرار العلم ، ومطالعة الكتب ، وحرمت على نفسك النوم . لا اعلم ما كان الباعث فيه . ان كان نيل غرض الدنيا ، وجذب حطامها ، وتحصيل مناصبها ، والمباهاة على الاقران والامثال ، فويل لك ثم ويل لك . وان كان قصدك فيه احياء شريعة النبي ، صلّى الله عليه وسلّم ، وتهذيب اخلاقك ، وكسر النفس الامّارة بالسوء ، فطوبى لك ثم طوبى لك . ولقد صدق من قال شعرًا :

سهر العيون لغير وجهك ضائع وبكاؤهن لغير فقدك باطل

❖◆❖

ايهـا الولد : عش ما شئت ، فانك ميت . واحبب ما شئت ، فانك مفارقه . واعمل ما شئت ، فانك مجزيّ به .

❖◆❖

ايها الولد : العلم بلا عمل جنون ، والعمل بغير علم لا يكون .

واعلم ان العلم لا يبعدك اليوم عن المعاصي ، ولا يحملك على الطاعة ، ولن يبعدك غدًا عن نار جهنم . واذا لم تعمل اليوم ، ولم تدارك الايام الماضية ، تقول غدًا يوم القيامة : فأرجعنا نعمل صالحًا . فيقال : يا احمق ، انت من هناك جيء !

❖◆❖

ايها الولد : ينبغي لك ان يكون قولك وفعلك موافقًا للشرع ، اذ العلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة . وينبغي لك ان لا تغتر بالشطح وطامات الصوفية ، لان سلوك هذا الطريق يكون بالمجاهدة ، وقطع شهوة النفس ، وقتل هواها بسيف الرياضة ، لا بالطامات والترهات . . .

واعلم بان بعض مسائلك ، التي سألتني عنها ، لا يستقيم جوابها بالكتابة والقول ، ان تبلغ تلك الحالة تعرف ما هي ، والا فعلمها من المستحيلات ، لانها ذوقية . وكل ما يكون ذوقياً ، لا يستقيم وصفه بالقول ، كحلاوة الحلو ، ومرارة المر ، لا يعرف الا بالذوق . . .

واما البعض الذي يستقيم له الجواب ، فقد ذكرناه في احياء العلوم وغيره . ونذكر ههنا نبذاً منه ، ونشير اليه فنقول : قد وجب على السالك اربعة امور :

الامر الاول : اعتقاد صحيح ، لا يكون فيه بدعة .

والثاني : توبة نصوح ، لا يرجع بعدها الى الزلة .

والثالث : استرضاء الخصوم ، حتى لا يبقى لاحد عليك حق .

الرابع : تحصيل علم الشريعة ، قدر ما تؤدي به اوامر الله تعالى ، ثم من علوم الاخرة ما تكون به النجاة . . .

❖◆❖

ايها الولد : . . . ان حاتم الاصم كان من اصحاب الشقيق البلخي ، رحمة الله عليهما . فسأله يوماً قال : صاحبتني منذ ثلاثين سنة ، ما حصلت فيها ؟ قال : حصلت ثماني فوائد من العلم . . . :

الفائدة الاولى : اني نظرت الى الخلق ، فرأيت لكل منهم محبوباً ومعشوقاً ، يحبه ويعشقه . وبعض ذلك المحبوب يصاحبه الى مرض الموت . وبعضه الى شفير الهاوية . ثم يرجع كله ، ويتركه فريداً وحيداً ، ولا يدخل معه في قبره منهم احد . فتفكرت وقلت : افضل محبوب المرء ما يدخل في قبره ، ويؤانسه فيه ، فما وجدته غير الاعمال الصالحة ، فاخذتها محبوباً لي ، لتكون سراجاً لي في قبري ، وتؤانسني فيه ، ولا تتركني فريداً .

الفائدة الثانية : اني رأيت الخلق يقتدون باهوائهم ، ويبادرون الى

مرادات انفسهم ، فتأملت قوله تعالى: «واما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى» ، وتيقنت ان القرآن حق صادق ، فبادرت الى خلاف نفسي ، وتشمرت بمجاهدتها ، وما متعتها بهواها ، حتى رضيت بطاعة الله ، سبحانه وتعالى ، وانقادت .

الفائدة الثالثة : اني رأيت كل واحد من الناس يسعى في جمع حطام الدنيا ، ثم يمسكها ، قابضاً يده عليها ، فتأملت في قوله تعالى: «ما عندكم ينفد ، وما عند الله باقٍ» ، فبذلت محصولي من الدنيا لوجه الله تعالى ، ففرقته بين المساكين ، ليكون ذخرًا لي عند الله تعالى .

الفائدة الرابعة : اني رأيت بعض الخلق ظنّ شرفه وعزّه في كثرة الاقوام والعشائر ، فاغترّ بهم . وزعم آخرون انه في ثروة الاموال ، وكثرة الاولاد ، فافتخروا بها . وحسب بعضهم الشرف والعز في غصب اموال الناس ، وظلمهم ، وسفك دمائهم . واعتقدت طائفة انه في اتلاف المال ، واسرافه وتبذيره . وتأملت في قوله تعالى: «ان اكرمكم عند الله اتقاكم» ، فاخترت التقوى . . .

الفائدة الخامسة : اني رأيت الناس يذم بعضهم بعضاً ، ويغتاب بعضهم بعضاً ، فوجدت ذلك من الحسد في المال والجاه والعلم . فتأملت في قوله تعالى : «نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا» ، فعلمت ان القسمة كانت من الله تعالى في الازل ، فما حسدت احدًا ، ورضيت بقسمة الله تعالى .

الفائدة السادسة : اني رأيت الناس يعادي بعضهم بعضاً ، لغرض وسبب ، فتأملت قوله تعالى : «ان الشيطان لكم عدو ، فاتخذوه عدوًا» ، فعلمت انه لا تجوز عداوة احد غير الشيطان .

الفائدة السابعة : اني رأيت كل احد يسعى بجد ، ويجتهد بمبالغة ، لطلب القوت والمعاش ، بحيث يقع به في شبهة وحرام ، ويذل نفسه ،

وينقص قدره . فتأملت في قوله تعالى : « وما من دابة في الارض ، الا على الله رزقها » ، فعلمت ان رزقي على الله تعالى ، وقد ضمنه ، فاشتغلت بعبادته ، وقطعت طمعي عمن سواه .

الفائدة الثامنة : اني رأيت كل واحد معتمداً على شيء مخلوق ، بعضهم الى الدينار والدرهم ، وبعضهم الى المال والملك ، وبعضهم الى الحرفة والصناعة ، وبعضهم الى مخلوق مثله . فتأملت في قوله تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ امره ، قد جعل الله لكل شيء قدرًا » ، فتوكلت على الله تعالى ، فهو حسبي ، ونعم الوكيل .

فقال شقيق : وفقك الله تعالى ! اني قد نظرت التوراة ، والانجيل ، والزبور ، والفرقان ، فوجدت الكتب الاربعة تدور على هذه الفوائد الثمانية ، فمن عمل بها ، كان عاملاً بهذه الكتب الاربعة .

❖❖❖

ايها الولد : . . . انه ينبغي للسالك شيخ مرشد مربٍ ، ليخرج الاخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقاً حسناً . ومعنى التربية يشبه فعل الفلاح ، الذي يخرج الشوك ، ويخرج النباتات الاجنبية من بين الزرع ، ليحسن نباته ، ويكمل ريعه . . .

❖❖❖

ايها الولد : اني انصحك بثمانية اشياء ، اقبلها مني لئلا يكون علمك خصماً عليك يوم القيامة ، تعمل منها اربعة ، وتدع منها اربعة .

اما اللواتي تدع :

احدها ان لا تناظر احدًا في مسألة ، ما استطعت ، لان فيها آفات كثيرة ، فانها اكبر من نفعها ، اذ هي منبع كل خلق ذميم كالرياء والحسد والكبر والحقد والعداوة والمباهاة وغيرها . نعم ، لو وقع مسألة بينك

وبين شخص او قوم ، وكانت ارادتك فيها ان تظهر الحق ، ولا يضيع ، جاز البحث ...

والثاني مما تدع هو ان تحذر من ان تكون واعظاً ومذكراً ، لان فيه آفة كثيرة ، الا ان تعمل بما تقول اولاً ، ثم تعظ به الناس...

والثالث مما تدع ان لا تخالط الامراء والسلاطين ، ولا تراهم ، لان رؤيتهم ومجالستهم ومخالطتهم آفة عظيمة . ولو ابتليت بهم ، دع عنك مدحهم وثناءهم ، لان الله تعالى يغضب اذا مدح الفاسق والظالم . ومن دعا لطول بقائهم ، فقد احب ان يعصى الله في ارضه .

والرابع مما تدع ان لا تقبل شيئاً من عطاء الامراء وهداياهم ، وان علمت انهـا من الحلال ، لان الطمع منهم يفسد الدين ، لانه يتولد منه المداهنة ، ومراعاة جانبهم ، والموافقة في ظلمهم...

واما الاربعة التي ينبغي لك ان تفعلها :

الاول ان تجعل معاملتك مع الله تعالى ، بحيث لو عامل معك بهـا عبدك ترضى بهـا منه ، ولا يضيق خاطرك عليه ، ولا تغضب . والذي لا ترضى لنفسك من عبدك المجازي ، فلا ترضَ ايضاً لله تعالى ، وهو سيدك الحقيقي .

والثاني : كلما عملت بالناس ، اجعله كما ترضى لنفسك منهم ، لانه لا يكمل ايمان عبد ، حتى يحب لسائر الناس ما يحب لنفسه .

والثالث : اذا قرأت العلم ، او طالعته ، ينبغي ان يكون علمك يصلح قلبك ، ويزكي نفسك ، كما لو علمت ان عمرك ما يبقى غير اسبوع ... ولا يمر على عبد يوم وليلة الا ويمكن ان يكون موته فيهما...

والرابع : ان لا تجمع من الدنيا اكثر من كفاية سنة .

◆◆◆

ايها الولد : اني كتبت في هذه الفصول ملتمساتك ، فينبغي لك ان

تعمل بها ، ولا تنساني فيه من ان تذكرني في صالح دعائك ... واقرأ هذا الدعاء في اوقاتك ، خصوصاً اعقاب صلواتك :

اللهم ، اني اسألك من النعمة تمامها ، ومن العصمة دوامها ، ومن الرحمة شمولها ، ومن العافية حصولها ، ومن العيش ارغده ، ومن العمر اسعده ، ومن الاحسان اتمه ، ومن الانعام اعمه ، ومن الفضل اعذبه ، ومن اللطف اقربه . اللهم ، كن لنا ولا تكن علينا . اللهم ، اختم بالسعادة آجالنا ، وحقق بالزيادة آمالنا ، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا ، واجعل الى رحمتك مصيرنا ومآلنا ، واصبب سجال عفوك على ذنوبنا ، ومنّ علينا باصلاح عيوبنا ، واجعل التقوى زادنا ، وفي دينك اجتهادنا ، وعليك توكلنا واعتمادنا . اللهم ، ثبتنا على نهج الاستقامة ، واعذنا في الدنيا من موجبات الندامة يوم القيامة ، وخفف عنا ثقل الاوزار ، وارزقنا عيشة الابرار ، واكفنا واصرف عنا شر الاشرار ، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وامهاتنا واخواننا واخواتنا من النار ، برحمتك يا عزيز يا غفّار ، يا كريم يا ستّار ، يا عليم يا جبّار ، يا الله يا الله يا الله ، برحمتك يا ارحم الراحمين .

اعمل ، وانت غير مرئي !

يتكلم الغزالي عن سلوك سبيل السعادة الاخروية ، فيرى ان الناس في ذلك اربع فرق ، وان الفرقة الرابعة ذهبت الى ان الموت عدم محض ، وان الطاعة والمعصية لا عاقبة لها ، فيخاطب من يميل الى اعتقاد هذه الفرقة قائلاً :

وان كنت تظن صحته ظناً غالباً ، ولكن بقي في نفسك تجويز صدق الانبياء والاولياء وجماهير العلماء ، ولو عن بعد ، فعقلك ايضاً يتقاضاك سلوك طريق الأمن ، واجتناب مثل هذا الخطر الهائل . فانك لو كنت في جوار ملك ، وامكنك ان تتعاطى في واحد من محارمه ، مثلاً ،

عملًا من الاعمال ، تظن ظناً غالباً انه يقع منه موقع الرضى ، فيعطيك عليه خلعة ودينارًا ، ويحتمل احتمالًا ، على خلاف الظن الغالب ، انه يقع منه موقع السخط ، فينكل بك ، ويفضحك ، ويديم عقوبتك كل عمرك ، اشار عليك عقلك بان الصواب ان لا تقتحم هذا الخطر . فانك ان فعلت واصبت فمزيته دينار ، لا يطول بقاؤه معك . وان اخطأت فنكاله عظيم ، يبقى معك طول عمرك ، فليس تفي ثمرة صوابه بغائلة خطأه . . . ولهذا قال علي ، رضي الله تعالى عنه ، لمن كان يشاغبه ويعاريه في امر الاخرة : ان كان الامر على ما زعمت ، تخلصنا جميعاً ، وان كان الامر كما قلتُ ، فقد هلكتَ ونجوتُ .

فلاسفة العرب

ظهر :

ابن الفارض : مقدمات في التصوف
دراسة – شعر مختار

ابو العلاء المعري في لزومياته : دراسة – شعر مختار

ابن خلدون : دراسة – مختارات

يظهر قريباً :

ابن رشد : دراسة – مختارات